ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ .. ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون] فعلان لا بُدَّ أن ينشأ بعد وجود الحياة ووجود الموت ، فالخالق - عز وجل - يُوجِد الحياة أولاً ، ويوجد الموت ، ثم يجرى حدثاً منهما على ما يريده .

والحياة سبقتْ الموت فى كل الآيات ، إلا فى آية واحدة فى سورة تبارك : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾﴾ [الملك] وعلَّة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادةً تُنشئ الحركة فى كل أجهزته ، ولك أن تتأمل : ما الذى تفعله إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ تحريك يدك أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة وتتحرك أعضاؤك دون أن تدرى أو تُجهد نفسك للقيام بهذه الحركات ، ودون أن تباشر أى شىء .

إذن : بمجرد إرادتك تنفعل لك الجوارح وأنت مخلوق لربك ، فإذا كان المخلوق يفعل ما يريد بلا معالجة ، فكيف نستبعد هذا فى حقِّه - سبحانه وتعالى - ونكذب أنه يقول للشىء : كُنْ فيكون ، مع أننا نفعل ما نريد بجوارحنا بمجرد الإرادة ، ودون أن نأمرها بشىء أو نقول شيئاً ، والله سبحانه وتعالى يقول للشىء : كُنْ فيكون ، وأنت تفعل دون أن تقول .

وقد قدَّم الحق سبحانه الموتَ فى هذه الآية : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ

وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ [الملك] ؛ لأن الحياة ستُورث الإنسانَ غروراً فى سيطرة إرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربه ـ عز وجل ـ أن يُنبهه : تذكّر أننى أميتُ ؛ ليستقبل الحياة ومعها نقيضها ، فيستقيم فى حركة الحياة .

وصفة الخَلْق والإماتة صفات لله قديمة قبل أنْ يخلق شيئاً أو يميت شيئاً ؛ لأنها صفات ثابتة لله قبل أنْ يباشر متعلقات هذه الصفات كما قلنا ، ولله المثل الأعلى : الشاعر حين يقول قصيدة قالها لأنه شاعر ولا نقول : إنه شاعر لأنه قال هذه القصيدة ، فلولا صفة الشعر فيه ما قال .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، وقد يقول قائل : إذا أطلقتَ رصاصة على شخص أردتْهُ قتيلاً فقد خلقتَ الموت . نقول : الحمد لله أنك لم تدَّع الإحياء واكتفيتَ بالموت ، لكن فَرْق بين الموت والقتل ، القتل نَقْض للبِنْية يتبعه إزهاق للروح ، أما الموت فتخرج الروح أولاً دون نَقْض للبنية .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران]

والنمرود الذى حَاجَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى ربه أمر بقتل واحد وتَرْك الآخر ، وادَّعى أنه أحيا هذا ، وأمات هذا ، وكانت منه هذه الأعمال سفسطة لا معنى لها ، ولو كان على حَقٍّ لأمرَ بإحياء هذا الذى قتله ؛ لذلك قطع عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذا الطريق ونقله إلى مجال آخر لا يستطيع المراوغة فيه .

إذن : هَدْم البِنْية يتبعه خروج الروح ؛ لأن للروح مواصفات

خاصة ، بحيث لا تحل إلا فى بنية سليمة ، وقد أوضحنا هذه المسألة - ولله المثل الأعلى - بلمبة الكهرباء ، فقوة الكهرباء كامنة فى الأسلاك لا نرى نورها إلا إذا وضعنا اللمبة مكانها ، ويكون لها مواصفات بحيث لا تضيء إلا إذا توفرتْ لها هذه الصفات ، فإنْ كُسِرَت ينطفيء نورها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون] الليل يحل بغياب الشمس وحلول الظُّلْمة التى تمنع رؤية الأشياء ، وقديماً كانوا يظنون أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من العين على المرئى ، ثم جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ، فأثبت خطأ هذه النظرية ، وقرر أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من المرئىّ على العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى الشىء إنْ كان فى الظلام .

وظُلْمة الليل تنبهنا إلى أهمية الضوء الذى لا بُدَّ منه لنهتدى إلى حركة الحياة ، والإنسان يواجه خطورة إنْ سار فى الظلام ؛ لأنه إمَّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، أو بأقوى منه فيؤلمه ويؤذيه .

إذن : لا بُدَّ من وجود النور لتتم به حركة الحياة والسَّعْى فى مناكب الأرض ، وكذلك لا بُدَّ من الظُّلْمة التى تمنع الإشعاع عن الجسم ، فيستريح من عناء العمل ، وقد أثبت العلم الحديث خطر الإشعاعات على صحة الإنسان .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون] فجعلهما يختلفان ويتعاقبان ليؤدى كل منهما وظيفته فى الكون ، يقول تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل] وطالما أن لكل منهما مهمته ، فإياك أن تقلب الليل إلى نهار ، أو النهار إلى ليل ؛ لأنك بذلك تخالف الطبيعة التى خلقك الله عليها ، وانظر إلى هؤلاء

الذين يسلكون هذا المسلك فيسهرون الليل حتى الفجر ، وينامون النهار حتى المغرب ، وكم أحدثوا من فساد فى حركة الحياة ، فالتلميذ ينام فى الدرس ، والعامل ينام ويُقصِّر فى أداء عمله .

والنبى ﷺ يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى قوله : « ... أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] لأن الجسم لا يأخذ راحته ، ولا يهدأ إلا فى الظلمة ، فيصبح الإنسان قوياً مستريحاً نشيطاً ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ [النبأ]

ومن دقَّة الأداء القرآنى أن يراعى هؤلاء الذين يعملون ليلاً ، وتقتضى طبيعة أعمالهم السَّهَر ، مثل رجال الشرطة وعمال المخابز وغيرهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم] فالليل هو الأصل ، والنهار لمثل هؤلاء الذين يخدمون المجتمع ليلاً ؛ لذلك عليهم أن يجعلوا من النهار ليلاً صناعياً ، فيغلقوا النوافذ وينامو فى مكان هادىء ؛ ليأخذ الجسم حظه من الراحة والهدوء .

إذن : الليل والنهار ليسا ضِدَّيْن ، إنما هما خَلْقان متكاملان لا متعاندان ، وهما كالذكَر والأنثى ، يُكمل كل منهما الآخر ، لا كما يدَّعى البعض أنهما ضدان متقابلان ؛ لذلك بعد أن أقسم الحق سبحانه بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلَّى ، قال : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل] فالليل والنهار كالذكر والأنثى لكل منهما مهمة فى حركة الحياة .

واختلاف الليل والنهار من حيث الضوء والظُّلْمة والطول والقِصَر وفى اختلاف الأماكن ، فالليل لا ينتظم الكون كله ، وكذلك النهار ،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) من حديث جابر ابن عبد الله ، واللفظ للبخارى .

فحين يكون عندك لَيْل فهو عند غيرك نهار ، يقول تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر]

وينتج عن هذا تعدُّد المشارق والمغارب بتعدُّد الأماكن بحيث كل مشرق يقابله مغرب ، وكل مغرب يقابله مَشْرق ، لدرجة أنهم قالوا : ينشأ ليل ونهار فى كل واحد على مليون من الثانية .

وينشأ عن هذا كما قلنا استدامة ذِكْر الله على مدى الوقت كله ، بحيث لا ينتهى الأذان ، ولا تنتهى الصلاة فى الكون لحظة واحدة ، فأنت تصلى المغرب ، وغيرك يصلى العشاء .. وهكذا . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون مذكوراً فى كل الكون بجميع أوقات الصلاة فى كل وقت .

حتى إن أحد الصوفية وأهل المعرفة يقول مخاطباً الزمن : يا زمن وفيك كل الزمن . يعنى : يا ظهر وفيك عصر ومغرب وعشاء وفجر ، لكن عند غيرى .

ومن اختلاف الليل والنهار ينشأ أيضاً الصيف الحار والشتاء البارد ، والحق سبحانه وتعالى كلف العبيد كلهم تكليفاً واحداً كالحج مثلاً ، وربط العبادات كلها بالزمن الهجرى ، فالصيف والشتاء يدوران فى الزمن ، ويتضح هذا إذا قارنت بين التوقيت الهجرى والميلادى ، وبذلك مَنْ لم يناسبه الحج فى الصيف حَجَّ فى الشتاء ؛ لأن اختلاف التوقيت القمرى يُلون السنة كلها بكل الأجواء .

لذلك قالوا : إن ليلة القدر تدور فى العام كله ؛ لأن السابع والعشرين من رمضان يوافق مرة أول يناير ، ومرة يوافق الثانى ، ومرة يوافق الثالث ، وهكذا .

ومن اختلاف الليل والنهار أنهما خلْفة ، كما قال تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان]

فنحن نرى الليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، لكن احكم القضية فى كل أطوار زمنها ، فما دام الحق - سبحانه وتعالى - جعل الليل والنهار خلْفة ، فلا بُدَّ أن يكون ذلك من بداية خلقهما ، فلو وُجِد الليل أولاً ثم وُجِد النهار ، فلا يكون الليل خلْفة ؛ لأنه لم يسبقه شىء ، فهذا يعنى أنهما خُلقا معاً ، فلما دار الزمن خلف بعضهما الآخر ، وهذا لا ينشأ إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، بحيث يجتمع فيها الليل والنهار فى وقت واحد ، فالذى واجه الشمس كان نهاراً ، والذى واجه الظلمة كان ليلاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾ [المؤمنون] لأن هذه المسائل كان يجب أن تعقلوها خاصة ، وقد كانت اختلافات الأوقات مَبْنية على التعقل ، أما الآن فهى مَبْنية على النقل ، حيث تقاربت المسافات ، وصِرْنا نعرف فارق التوقيت بيننا وبين جميع أنحاء العالم بالتحديد .

كذلك كان الناس فى الماضى ينكرون نظرية كروية الأرض ، حتى بعد أن التقطوا لها صوراً أظهرت كرويتها وجدنا من مفكرينا من ينكر ذلك . ونقول : لماذا نقف هذا الموقف من نظريات ثابتة قد سبق قرآنُنا إلى هذا القول ؟ ولماذا نعطى الآخرين فكرة أن ديننا يغفل هذه المسائل ، مع أنه قد سبق كل هذه الاكتشافات ؟

ولو تأملتَ قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ .. (٣)﴾ [الرعد] لوجدت فيه الدليل القاطع على صدْق هذه النظرية ؛ لأن الأرض الممدودة هى التى لا تنتهى إلى حافة ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا كانت

الأرض كروية بحيث تسير فيها ، لا تجد لها نهاية حتى تصل إلى الموضع الذى منه بدأت ، ولو كانت الأرض على أى شكل آخر غير الكروى مثل المربع أو المستطيل لكان لها نهاية . لكن لم تتوفر لنا فى الماضى الآلات التى تُوضِّح هذه الحقيقة وتُظهرها .

إذن : الحق سبحانه فى قوله : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون] ينبهنا إلى ضرورة إعمال العقول فى المسائل الكونية ؛ لأنها ستوفر علينا الكثير فى الطريق إلى الله عز وجل ، ولماذا يُعمل الإنسان عقله ويتفنَّن مثلاً فى ارتكاب الجرائم فَيُرتب لها ويُخطط ؟ لكن الله تعالى يكون له بالمرصاد فيُوقعه فى مَزْلَق ، فيترك وراءه منفذاً لإثبات جريمته ، وثغرة تُوصِّل إليه ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة ، وهذه مهمة القاضى أو المحقق الذى يحاور المجرم ليصل إلى هذه الثغرة .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لقد استخدمتَ عقلك فيما لا ينبغى ، وسخَّرْته لشهوات نفسك ، فلا بُدَّ أن أوقعك فى مزلق ينكشف فيه أمرك ، فإنْ سترتها عليك مرة فإياك أنْ تتمادى ، أو تظنَّ أنك أفلتَّ بعقلك وترتيبك وإلاَّ أخذتُك ولو بجريمة لم تفعلها ؛ لأنك لا تستطيع أن تُرتِّب بعقلك على الله ، وعدالته سبحانه فوق كل ترتيب .

كما لو فُضِح إنسان بأمر هو منه برىء ، ولحقه الأذى والضرر بسبب هذه الإدانة الكاذبة ، فتأتى عدالة السماء فيستر الله عليه فضيحة فعلها جزاءً لما قد أصابه فى الأولى ، وهذه مسألة لا يفعلها إلا رب .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما يُنبِّه العقل ويثيره : تفكَّر ، تدبَّر ، تعقَّل ، ليدرك الأشياء الكونية من حوله ، فهذا دليل على أنه

سبحانه واثق من صَنْعته وإبداعه لكونه ؛ لذلك يثير العقول للبحث وللتأمل فى هذه الصنعة .

وهذه المسألة نلاحظها فيمَنْ يعرض صَنْعته من البشر ، فالذى يتقن صَنْعته يعرضها ويدعوك إلى اختبارها والتأكد من جودتها على خلاف الصنعة الرديئة التى يلفّها لك صانعها ، ويصرفك عن تأملها حتى لا تكشف عيبها .

فحين ينبهك ربك إلى التأمل فى صَنْعته فعليك أنْ تدرك المغزى من هذه الإشارة لتصل إلى مراده تعالى لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

أى : لم يتعظوا بكل هذه الآيات ، بل قالوا مثلما قال الأولون :

﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وسواء أكان هذا قولهم أو قول سابقيهم من الأولين ، فقد كان الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية فى مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدى إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر .

ولذلك قال قائلهم : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس]

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أتظنون أن الله تعالى إذا وعدكم بالموت ثم بالبعث أن هذا سيكون في الدنيا ؟ لذلك تقولون : وُعدْنا بهذا من قبل ولم يحدث ، وقد مات منَّا كثيرون ولم يعودوا ولم يُبعثوا ، فَمَنْ قال لكم إنكم ستموتون اليوم وتُبعثون غداً ؟

البعث لا يكون إلا بعد أن يموت جميع الخَلْق ، ثم يُبعثوا كلهم مرة واحدة .

إذن : هذا الكلام منهم مجرد سفسطة وجدل لا معنى له .

وكلمة ﴿وُعِدْنَا .. (٨٣)﴾ [المؤمنون] يعني بالبعث ، والوعد عادة يكون بالخير، كما أن الوعيد يكون بالشر ، كما جاء في قول الشاعر :

وإنِّي إذَا أوْعدتُه أوْ وَعدتُه ... لَمخلفُ إيعَادِي ومُنجزُ موْعدِي

يعني : هو رجل كريم يترك الشر الذي توعَّد به ، ويفعل الخير الذي وعد به ، وإن قال العلماء : قد يستعمل هذا مكان هذا .

لكن ، هل الوعد للكفار بالبعث وما يتبعه من عذاب وعقاب يُعَدُّ وَعْداً ؟ قالوا : نعم يعد هذا الشر وهذا العذاب الذي ينتظر وَعْداً بالخير لأنه يُنبههم ويلفتهم إلى خطورته حتى لا يقعوا فيه إذن : هو خير لهم الآن حيث يُحذِّرهم كما تحذر ولدك من الرسوب إنْ أهمل في دروسه .

ومن ذلك أيضاً في هذه المسألة ما أشرنا إليه من تكرار قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] في سورة الرحمن ، وأنها جاءت بعد ذكْر نعم الله على سبيل التوبيخ لمَنْ أنكر هذه النعم أو كذَّب بها ، وتكررت مع كل نعمة تأكيداً لهذا التوبيخ ، لكن العجيب أن تذكر هذه الآية حتى بعد النقم أيضاً ، كما في قوله تعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

وهل فى النار والشُّواظ نعمة ؟ نقول : نعم فيها نعمة ؛ لأنها نصيحة لك قبل أن تقع فى هذا المصير وتحذير لك فى وقت التدارك حتى تراجع نفسك .

وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾ [المؤمنون] ﴿ إِنْ هَٰذَا.. (٨٣) ﴾ [المؤمنون] يعنى : ما هذا . وأساطير : جمع أسطورة مثل : أعاجيب وأعجوبة ، وهناك مَنْ يقول : إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال ، فهى جَمْع للجمع . وسواء أكانت جَمْع أسطورة أو جمع سطر ، فالمعنى لا يختلف ؛ لأن الشىء المسطور قد يعتبره الناس خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هى الكلام المكذوب الذى لا أصلَ له ، فلا يُسمَّى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلَكَ أن تقول أساطير إنما البعث الذى تقولون عنه ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾ [المؤمنون] لم يات وقته بعد ، فلم يمت جميع الخلْق حتى يُبعثوا ، فقد أخطأتم التوقيت وظننتم أنكم فى الدنيا تموتون وتبعثون هكذا على رؤوس الأشهاد ، والناس ما زالت فى سعة الدنيا .

إذن : ليس البعث كما تقولون ، بل هو حق ، ولكنكم لم تضعوا له الكلمة المناسبة ؛ لذلك يوجه إليهم هذه الأسئلة التقريرية التى تقيم عليهم الحجة :

﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) ﴾

ويأتى فى السؤال بإن الشرطية الدالة على الشك فى كونهم يعلمون .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فما دُمْتم أقررتم بأن الأرض ومَنْ فيها لله ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : ما الذى صرفكم عن مالك الأرض وخالقها ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

نلحظ أنهم لم يجادلوا فى هذه المسألة ، ولم يقولوا مثلاً إنها سماء واحدة هى التى نراها ، مما يدل على أنها أمر غير منكور عندهم ، ولا بُدَّ أن الأنبياء السابقين قد أخبروهم خبر السماء ، وأنها سبع سموات ، وأصبحت عندهم قضية عقلية يعرفونها ، وإلا كان بوُسْعهم الاعتراض ، حيث لا يرون إلا سماءً واحدة . إذن : لم يجادلوا فى هذا الموضوع .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾ [المؤمنون] العرش مخلوق عظيم لا يعلم كُنْهه إلا الله الذى قال فيه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [هود]

والعرش لم يَرَهُ أحد ، إنما أخبر عنه ربه الذى خلقه ، فقال : لى كذا ولى كذا ، ويكفى أن الله تعالى وصفه بأنه عظيم . وفى هذه أيضاً لم يجادلوا رسول الله ولم يقولوا إننا لم نَرَ العرش ، مما يدل على أن عندهم حصيلة من تراث الأنبياء السابقين انتقلت إليهم فطرة من فطر التكوين البشرى فى السماع من الموجودين .

وقد وصف العرش بأنه عظيم عند البشر أيضاً ، ففى قصة سليمان وملكة سبأ قال الهدهد : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] لأن العرش رمزية لاستقرار الملك واستتباب الأمر للمَلك الذى لا ينازعه فى مُلْكه أحد ، ولا يناوشه عليه عدو ؛ لذلك أول ما قال سليمان ـ عليه السلام ـ فى أمرها قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا .. (٣٨) ﴾ [النمل] وكأنه يريد أن يسلب منها أولاً رمز العظمة والأمن والأمان والاستقرار فى الملك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾

فما دام الأمر كذلك وما دُمْتم تعترفون بأن لله مُلْكَ السموات والأرض ، وله العرش العظيم ، فلماذا لا تتقون هذا الإله ؟ لماذا تتمردون على منهجه ؟ إن هذا الكون كله بما فيه خُلِق لخدمتك ، أفلا يلفتك هذا إلى الصانع المنعم .

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا ابْن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »[1] يعنى : لا تُلْهك النعمة عن المنعم . وعلى العبد أن ينظر أولاً إلى خالقه ومالكه ، فيؤدى حقه ، ثم ينظر إلى ما يملك هو .

ومعنى : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾ [المؤمنون] الاتقاء : أن تجعل بينك وبين صفات الجلال من الله وقاية ، وسبق أن قُلْنا : من عجيب آيات القرآن أن تقول مرة (اتقوا الله) ومرة (اتقوا النار) ، والمعنى لا تعارضَ فيه كما يظنه البعض ، بل المعنى واحد ؛ لأن النار جُنْد

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحبّ إليك من كل شىء » .

من جنود الله ومن صفات جلاله ، فالمراد : اتقوا عذاب الله ، واتقوا صفات القهر والجبروت بأن تجعل بينك وبينها وقاية .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

معنى ﴿ بِيَدِهِ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] تدل على التمكّن من الشيء ، كما تقول : هذا الأمر في يدى يعنى فى مُكْنتى وتصرفى ، أقلبه كيف أشاء ﴿ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] مادة ملك منها مِلْك ، ومنها مُلْك ، ومنها ملكوت .

المِلْك ما تملكه أنت ، حتى لو لم يكن عندك إلا ثوب واحد فهو مِلْك ، أمّا مُلْك فيعنى أنْ تملك مَنْ يملك ، وهذا يكون ظاهراً . أما المَلكوت فالأشياء المخلوقة التى لا تقع عليها حواسُّك ، ولا يمكن أن تعلم عنها شيئاً إلا بإخبار خالقها ، والإنسان لا يرى كل ما فى الكون ، بل إن فى نفسه وذاته أشياءً لا يعرفها ، فهذا كله من عالم الملكوت .

بل إن الإنسان لا يرى حتى المُلْك الظاهر المحسّ ؛ لأنه لا يرى منه إلا على قَدْر مَدِّ بصره ، وما خرج عن هذا النطاق لا يراه ، وإن كان يراه غيره ، ويمكن أن يدخل هذا المُلك الذى لا تراه فى دائرة الملكوت بمعناه الواسع .

إذن : الملكوت يُطلق على الأشياء المحجوبة التى لا يراها أحد ، أو على الأشياء التى يراه واحد دون الآخر .

والإنسان إذا تعمَّق فى عبادة الله وفى طاعته يفيض عليه من التجليات ، ويعطيه من هذا الملكوت عطاءً مباشراً ، كما قال : ﴿مِّن لَّدُنَّا .. (٦٧)﴾ [النساء]

ألا ترى إبراهيم عليه السلام قال عنه ربه : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة] يعنى : يؤدى ما لله بدقة وعلى الوجه الأكمل ؛ لذلك يأتمنه ربه على أن يكون إماماً للناس ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

فلما أحسن إبراهيمُ ما بينه وبين ربه وبلغ هذه المنزلة قال عنه ربه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٥)﴾ [الأنعام]

لأنه أحسن فى الأولى فرقى إلى أعلى منها . كما لو دخل رجل بيتك وشاهد ما عندك من نعيم ، ففرح لما أنت فيه ، وقال : ما شاء الله تبارك الله ، ودعا لك بالزيادة ، فلما رأيت منه ذلك قلت له إذن : تعالى أريك ما هو أعظم .

كذلك العبد الصالح الذى عبد الله وتقرَّب إليه بمنهج موسى عليهما السلام ، فلما استقام على هذا المنهج وتعمَّق فى عبادة الله وطاعته أعطاه الله من علمه اللدنىّ دون واسطة ودون رسول ، حتى كان هو مُعلِّماً لموسى عليه السلام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون] يجير : تقول : استجار بفلان فأجاره يعنى : استغاث به فأغاثه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨)﴾ [الأنفال] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضَعُفَتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوى يحميه ويدافع عنه .

إذن : هذه المسألة لها ثلاثة عناصر : مجير ، وهو الذى يقبل أن يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجَار : وهو الضعيف الذى يطلب الحماية . ومُجَار عليه : وهو القوى الذى يريد أن يبطش . ومن المعروف أن رسول الله ﷺ فى رحلته إلى الطائف وبعد أنْ فعلوا به ﷺ ما فعلوا استجار ، ودخل فى حمى كافر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يجير مَن استجار به ، ويغيث مَن استغاثه لكن ﴿لا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون] لأن الذى يجيرك إنما يجيرك من مساوٍ له فى القوة ، فيستطيع أن يمنعك منه ، ويحميك من بطشه ، فَمَنْ ذَا الذى يحميك من الله ؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك ؟!

لذلك يقول سبحانه فى مسألة ابن نوح : ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود] فالله - عز وجل - يجير على كل شىء ، ومن أصبح وأمسى فى جوار ربه فلا خوف عليه .

وتلحظ هنا العلاقة بين صَدْر هذه الآية وعَجُزها : فالله تعالى بيده وفى قبضته سبحانه كل شىء ، والأمر كله إليه ، فإياك أنْ تظن أنك تفلت من قبضته بالنعمة التى أعطاك ؛ لأنه سبحانه قادر أن يسلبك إياها ، وساعتها لن يجيرك أحد ، ولن يغيثك من الله مغيث ، ولن يعصمك من الله عاصم .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران]

وهنا أيضاً يقول سبحانه : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون] إنْ كان عندكم علم بهذه المسألة ووصلت إليكم وعاينتموها .